مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية و آدابها، فصلية محكمة، العدد ٢٢، ربيع ١٣٩١ هـ.ش/ ٢٠١٢م صص ٢٥-٤٦

التحامق في الشعر المملوكي (دراسة وتحليل)

جهانگیر أمیري[١] ، فاروق نعمتي[٢]

الملخص

إنّ التحامق لونٌ خاصٌ من شعر الفكاهة يتصرّف فيه الشاعر وكأنّه مصاب بالبله والحمق ومـا بـه حمق، بل إنه يتظاهر بذلک عن وعی وإرادة. يتواجد شعر التحامق في كلّ عصر من الأعصر الأدبية، إلاّ أنّه شاع شيوعاً واسعاً في العصر المملوكي حتّى أصبح فنّا قائماً بذاته في ذلک العصر وسمة بـارزة للأدب المملوکی. يتحدّث شاعر التحامق في شعره عن أشياء من أهمها: الفقر، العيـوب الجـسمية والعيوب النفسيّة والاستهتار بالقيم السامية والخلق النبيلة ولوم الحكّام والأمراء. والباعث الرئيـسي الذي دفع الشاعر إلى شعر التحامق في ذلک العصر هو التكسّب، إلاّ أنّ ثمّة عوامل اجتماعيّـة أدّت إلى توسيع نطاقه ومن أهمّها: الفقر المدقع الناجم عن الحروب المستمرّة والضرائب المثقلة على كاهل الشعب، ظلم الحكّام الجائرين، والانحراف الذي طرأ على المعايير الخلقية والمقائيس الاجتماعيّة، كـلّ ذلک جعل الشعراء يزدرون بالقيم السامية والخلق النبيلة ازدراءً. يرمي هذا البحث إلى دراسة شـعر التحامق ومضامينه وأسباب شيوعه في العصر المملوكي؛ إذ إنّه يعطي صورة واضحة عن الأوضـاع العامة للعصر المملوكي وحياة الناس في ذلک العصر.

المفردات الرئيسية: التحامق، الشعر المملوكي، الدوافع الذاتية، العوامل الاجتماعية، مضامين شعر التحامق.

---

١ . أستاذ مساعد في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة رازي. Faroogh.nemati@gmail.com

٢ . طالب دكتوراه بجامعة رازي في فرع اللغة العربية وآدابها.

تاريخ استلام البحث:٨٩/١٠/٢٨ تاريخ قبول البحث: ٩٠/١١/١٠

١. المقدمة

لّما كان هناک صلة قويّة بين التحامق وشعر العتاب والشكوى يجدر بنا أوّلاً أن نتحدّث وبإيجازٍ شديد عن هذا الشعر تمهيداً للدخول في شعر التحامق فيما بعد. أخذ شعر الشكوى والعتاب المعبّر عن آلام ومآسي الشاعر يتزايد في العصر المملوكي. السمة الرئيسة للشكوى في ذلک العصر هو امتزاجه واندماجه بالهزل والفكاهة. كان شعراء العتاب يُضفون على أشعارهم طابعاً من الفكاهة والهزل وذلک بدافع التخفيف من حدّته ووخزه المؤلم أثناء إلقاءهـا على المستمعين تجنّباً إثارة غضبهم وتفادياً الأخطار التي تهدّد حياتهم، وتنفيساً عن كروبهم ومعاناتهم. كلّما ازدادت الأوضاع العامّة حدّة وتفاقماً اتسع نطاق الشكوى وتطوّر شكلاً ومضموناً حتّى أدّى في نهاية المطاف إلى ظهور التحامق (أميري، ١٣٨٧، ٦٩).

والتحامق يشترک مع الأدب الساخر أو الشعر الفكاهي من جهة، ويختلف عنه من جهة أخرى. أمّا الوجه المشترک فهو البنية الهزلية والتشكيلة الفكاهية التي تُعطي لهذا النوع من الشعر مذاقه الخاصّ ولونه المتفرّد، ووجه الخلاف هو أنّ التحامق يتميّز عن الفكاهة بكونه صادراً عن شاعرٍ يريد أن يعرض عن نفسه شخصية حمقاء ترفض القيم والمُثل ولا تأبه بما يكون موضع اهتمام واحترام الآخرين من الشجاعة والعفاف والأنفة والفروسيّة. من الجدير ذكره أنّ الشعر المملوكي بما فيه الفكاهة والتحامق يعتبر خير منبع لمطالعة الأوضاع العامّة والظروف المعيشيّة التي يحياها المجتمع؛ ذلک لأنّ كتب التاريخ والأدب قلّما تطرّقت إلى حياة الناس وسلوكهم اليوميّ بل إنّ شغلها الشاغل هو الاهتمام بحياة الملوک والأمراء البعيدة كلّ البعد عن الواقع الذي يعيشه الناس، ثمّ لا يغيب عن بالنا أنّ شعر التحامق في العصر المملوكي جرى جلّه على لسان الشعراء المتفوّقين النابهين وباللغة العربيّة الفصحى، والحال أنّ المتحامقين في العصور الماضية كانوا غالباً ما من المغمورين وخاملي الذكر. كما أنّ شعر التحامق نُظم في تلک العصور باللغات العاميّة والمحليّة ممّا يحطّ من شأنه وقيمته. وأمّا المحاور التي يتمحور حولها هذا المقال فهي:

١. أهمّ المضامين الواردة في شعر التحامق
٢. النزعات الفرديّة التي ساقت المتحامقين نحو هذا الشعر
٣. المؤثرات العامّة التي أثرّت على هذا الفنّ وساعدت على نموّه قلباً وقالباً
٤. أهميّة هذا اللون الشعري في دراسة قضايا المجتمع المملوكي

٢. سابقة البحث

لم يتمّ لحدّ الآن حسبما نعلم دراسة مستقلّة أو أطروحة جامعيّة أو ما يشبه ذلك فيما يتعلّق بالتحامق. وما جاء في كتب الأدب العربي التي وُضعت حول الشعر المملوكي ينحصر في الفكاهة والهزل فقط و لم يتطرّق إلى التحامق، كأنّ التحامق في نظر مؤلّفيها جزء لا يتجزّأ من الفكاهة.

ثمّة دراسة «لمحمد عبدالقادر أشقر» حول موضوع التحامق نشرتها مجلة «التراث العربي» (١٤٢٢ق، العدد ٨٣-٨٤) إلا أنّها تفتقر إلى الكثير من العناصر التي تحتاجها مقالة علميّة من الأسلوبيّة والمنهجيّة والتحليل والفرضيات، زد على ذلك أنّ المقال المذكور أشبه ما يكون بعرض تاريخيّ للموضوع حول الفكاهة. أشار الباحث من خلالها إلى التحامق إشارات عابرة وضئيلة، فإنّها في الحقيقة محاضرة ألقاها الباحث على طلّابه حول تاريخ الفكاهة عرّج في أثناءها على التحامق بشكل عامّ موجز. ولقد حاولنا في مقالتنا هذه معالجة المزيد مما يتعلّق بشأن التحامق حتّى يتمّ البحث بشكلٍ لا غموض فيه ولا غبار عليه.

٣. وقفة قصيرة مع لفظة «التحامق»

حسبما تفيدنا مصادر اللغة العربيّة أنّ «الحمق» وهو المادّة الأصليّة لكلمة التحامق يعني البلاهة والسفه، كما أنّ سائر مشتقّاته كـ«انحمق» و«استحمق» تُفيد نفس المعنى أيضاً. والحمق صفة ذاتيّة طُبع عليها بعض الأشخاص لكنّ التحامق وهو المستعمل في باب «التفاعل» فمعناه التظاهر بالحمق مع كون المتظاهر عاقلاً في الحقيقة، (ابن منظور، ١٩٧٥: ٣/٢٧٩) إذاً المتحامق هو الشخص الذي يتظاهر بالحمق ويأتي من الأقوال والتصرّفات ما يخصّ الأشخاص البُله دون أن يكون فيه بلاهة. وما جاء على هذا النمط لفظة «المتجاهل» وهو الذي يتظاهر بالجهل، ولفظة «المتمارض» وهو الذي يتظاهر بكونه مريضاً وما به مرضٌ. فكما أنّ في هاتين اللفظتين ليس الجهل والمرض حقيقةً، ليس كذلك الخرف والحمق في المتحامق على وجه الحقيقة.

٤. نبذة من تاريخ شعر التحامق

وُجد التحامق منذُ أن وُلد الإنسان فلا يخلو منه مكان أو زمان، إلاّ أنّه ازداد نموّاً واتساعاً في الظروف التي يسودها الظلم والاضطهاد. قال صاحب الأغاني إنّ «أبا دلامة» (١٦١ق) و«أبا

شمقمق» (۲۰۰ق) هما من أقدم من نظموا في مجال التحامق. ذكر أبوالفرج فيهما أيضاً أنّهما تظاهرا بالحمق لما وجدوا فيه تحقيقاً لمصالحهم وتجسيداً لطموحاتهم (الإصفهاني، ۱۹۷۱، ۲۰۵/۵).

كما ذكر الأغاني «أبا العبر» وهو من المتحامقين الذين عثروا على كميّة خياليّة من الأموال إلتى لا تعدّ ولا تُحصى (المصدر نفسه، ۱۸۹/۱۲). لقي التحامق في القرن الرابع الهجري وإثر شيوع الخلاعة والمُجون إقبالاً شديداً من قبل الشعراء، وأحرز «ابن حجّاج» (۳٥٦ق) و«ابن سكرة» (۳٦۲ق) من الشعراء المتحامقين قصب السبق وفاقا أقرانهما في هذا المضمار (حنيف، ۱۹۸٥، ۲۰۷). ثمّ يجب ألا نغفل الدور الذي لعبه ظاهرة المقامة في إشاعة التحامق في أواخر العصر العباسي، فإنّها تعدّ من أكبر المكوّنات التي تركت لمساتها وبصماتها على التحامق (المصدر نفسه، ۲۱۷). لا شكّ أنّ المقامة تحظى بأهميّة بالغة على الصعيد اللغوي والأسلوبي لاحتوائها على كميّة كبيرة من المفردات والأساليب الإنشائيّة التي تفيد الدارسين للأدب المصنوع، فتُعتبر من هذه الجهة ثروة أدبيّة هائلة لا يُستهان بها، لكنّها أثّرت على أخلاق المجتمع تأثيراً سيئاً جدّاً أدّى إلى شيوع طائفة تعتاش على الرذائل الخلقيّة من الزيف، والكذب، والمراوغة، والاحتيال، والاستجداء (حنيف، ۱۹۹۱، ۱۱۷). فالمقامة لاعتمادها على المدرسة المكياوليّة[1] التي تقوم على مبدأ «الغاية تبرّر الوسيلة» هدمت صروح الفضائل والقيم المبنيّة على الصدق والوفاء والكرم والعفّة والشجاعة والقناعة والفروسيّة.

كما أورد أصحاب المقامات من أمثال الهمذاني والحريري المزيد من الأساليب والحيَل التي نفّذها أبطال المقامات للتلاعب بعقول الناس والاستهزاء بالمثل والقيم طمعاً في المال والمنصب ممّا أدّى إلى انتشار التحامق لدى الشعراء انتشاراً غير مسبوق. لقد جاء في الأبيات التي أوردها بديع الزمان في مقامته الساسانيّة ما يدلّ على ركون الشعراء إلى الحماقة وإعراضهم عن العقل. فالحماقة حسبما يراها الشاعر مصدر فيّاض لكلّ خير وجمال، والعقل مصدر دفّاق لكلّ عيب ولؤم. والمقامات تزخر بهذه النماذج الشعريّة التي تخلع على الحماقة ثوب العزّ والكرامة، وتعطي العقل صورة قبيحة فاضحة؛ فعلى سبيل المثال نجد الشاعر أنّه رسم في البيتين التاليين للحمق صورة جميلة للإنسان الأحمق الذي يلتفّ حوله المال والثروة، كما صوّر للعقل تصويراً قبيحاً وكريهاً للشخص العاقل الذي تخلو يده من المال وحطام الدنيا (الهمذاني، ۱۹٦۲، ۲٦۰):

هَـــذَا الزَّمَانُ مَشْئُـــومٌ كَمَـــا تَـــرَاه غَشُـــــــومُ
الحُمْـــقُ فِيــه مَلِيـــحٌ وَالعَقْلُ عَـــيْبٌ وَ لُـــــؤْمُ
وَالمَـــالُ طَـــيْفٌ وَلكِنْ حَولَ اللِّـــئَـــامِ يَحُـــــومُ

٥. أسباب اتّساع نطاق التحامق في الشعر المملوكي

لقد أشرنا سابقاً إلى تفشّي التحامق في ذلك العصر واهتمام الشعراء الناهين به. ارتقى شعر التحامق في العصر المملوكى إلى درجة من الرقي والإزدهار لم يسبق لها نظير ولا مثيل. أخذ هذا الفنّ في العصر المملوكي من الأهمّيّة ما يحفّز الباحثين على معرفة أسباب تطويره ونشوءه. يجب أن نعرف العوامل التي ساهمت في إذكاء لهيبه ومهّدت له الطريق للنموّ والاكتمال، أخذاً بنظر الاعتبار أنّ هذه العوامل تكثر وتتنوّع تنوّعاً يصعب علينا استيعابها بشكلٍ وافٍ بالغرض، إلا أنّنا ارتأينا أنّه لمن الأنسب أن نقسّم العوامل إلى قسمين: العوامل الاجتماعيّة، والبواعث الفرديّة، ثمّ نقوم بدراسة كلّ منهما على حدة، بادئين بالعوامل الاجتماعيّة:

٥-١. العوامل الاجتماعيّة

تأثّر الشعر المملوكي عامّة وشعر التحامق خاصّة بالملابسات والظروف الاجتماعيّة التي أحاطت بالمجتمع المملوكي تأثّراً واضحاً، وها هي أهمّها:

١. الحروب المستمرّة: استناداً إلى الكتب التي عكست الأوضاع العامّة في العصر المملوكي، كان المماليک يقضون معظم أوقاتهم في المعارک التي اندلعت بينهم وبين أعداءهم من الصليبيين والمغول. كان حملة الصليب يُغيرون على البلدان الإسلاميّة بما فيها مصر والشام لأهداف توسعيّة ونزعات دينيّة، لكنّهم لم يجنوا من هذه الحروب سوى الفشل. كما كان المغول يريدون اقتحام بلدي مصر والشام وضمّهما إلى البلدان التي سيطروا عليها، إلا أنّ المماليک الشجعان تصدّوا لهم في معارک مستمرّة مستميتين، وألحقوا بهم هزيمة نكراء وأذاقوهم مرارة الذلّ والهوان (ابن تغري بردي، ١٩٨٩، ٣١١/٤). انعكست انتصارات المماليک في أشعار الشعراء بشكلٍ ملفتٍ للنظر؛ كما وصف الشاعر «عبد الظاهر» الشجاعة والحماسة الذي أبداه السلطان المملوكي «أشرف» في الحرب ضدّ الصليبيين، وعبّر عن الانتصار الذي حقّقه السلطان المملوكي على الأعداء بأنّه عقوبة إلهيّة جرت على

أيدي السلطان المملوكي البيضاء، ثمّ بشّر الشاعر الأعداء المنهزمين بالصفعات التي سيتلقّونها من السلطان في الحروب المقبلة بلا هوادة: (ابن إياس، ١٩٨٢، ٤٢٣/٣).

يَا بَنِي الأصْفَرِ[٢] قَدْ حَلَّ بِكُمْ   نَقْمَةُ اللهِ الَّتِي لا تَنفَصِل
قَدْ نَزَلَ الأشْرَفُ فِي سَاحَتِكُمْ   فَأبْشِروا مِنهُ بِصَفْعٍ مُتَّصِل

نتيجةً لكثرة الحروب الخارجيّة والفتن الداخليّة انعدم الأمن وتدهورت الظروف المعيشيّة ممّا أدّى إلى شيوع الفقر والنهب والإرعاب وما شابه ذلك من الأوضاع الرهيبة التي جعلت الولدان شيباً في العصر المملوكي (إبراهيم حسن، ١٩٤٨، ٣٤٦).

٢. كثرة البلايا الطبيعيّة: كان المجتمع المملوكي يعاني آنذاك شيوع المصائب والكوارث الطبيعيّة كالفيضانات، والزلازل، والأوبئة، والقحط، والمجاعة، فضلاً عن الحروب والفتن التي لا تُبقى ولا تذر. كانت هذه البلايا والمصائب تحصد يوميّاً كميّات هائلة من النفوس وتحوّل الحياة للشعب جحيماً. لقد صوّر المؤرخ المملوكي «ابن تغري بردي» في كتابه «النجوم الزاهرة» مشاهد رهيبة من الحروب والمجاعة والأوبئة التي عاينها بأمّ عينه (راجع: ابن تغري بردي، ١٩٨٩، ١٣٩/٤ إلى بعدها)، ولكن ما عكسته الأشعار من الظروف المأساويّة والأوضاع الكارثيّة لهو أوسع نطاقاً وأشمل حيطة ممّا جاء في كتب المؤرّخين؛ خذ مثلاً الأبيات التي صوّرت لنا زلزالاً مهيباً قضى على حياة الكثير من الناس و جعل من تبقّى من منكوبي الزلزال يتمنّون أن يلاقيهم الموت ويخلّصهم من معاناة الجوع والألم والحرمان (سلام، ١٩٥١، ٤١٩):

فَنِصْفُهُم هَلَكُوا فِيهَا وَنِصْفُهُمْ   بِمَصْرَعِ السَّلَفِ المَاضِينَ يَرْتَقِبُ

٣. أزمة الفقر والحرمان: الحروب المتتابعة التي استنفدت ثروات البلاد والضرائب الثقيلة التي فُرضت على الناس لتأمين نفقات الحرب تركت المجتمع المملوكي في حالة من الفقر المدقع والإفلاس الشديد؛ فأخذ الشعراء يتوسّلون إلى الشعر لتصوير معاناة الشعب الذي كان يرزح تحت وطأة الجوع والحرمان، فصوّروا تلك المشاهد الرهيبة والصور المؤسفة مستخدمين في ذلك أسلوب الهزل والفكاهة تخفيفاً لمعاناة الشعب وتنفيساً عن كروبهم؛ فمنهم مثلاً «أبوالحسين الجزار» الذي حاول أن يصف لنا مأساته من الفقر وحياته المحرجة

بأسلوب لا يخلو من مناخ الهزل، فهو يزاول مهنة الجزّار وبيع اللحوم، لكنّه وبالرغم من ذلك لا نصيب له من مهنته إلّا اسمها ولا حظّ له من اللحم سوى رائحته التي يشمّها؛ فها هي أبياته (رزق سليم، ١٣٨١ق، ١٧١):

أصْبَحتُ لَحَّاماً وَفِي البَيْتِ لَا   أعْرِفُ مَا رائحَةُ الَّلحْمِ
وَلَيْسَ حَظِّي منهُ إلّا اسْمُه   قَنَعْتُ مِنْ ذَلكَ بالإسْمِ
وَاعْتَضْتُ مِن فَقْرِي وَمِنْ قَامَتِي   عَنِ التِذاذِ الطَّعْمِ بالشَّمِّ

ومن نافلة القول إنّ كثيراً من الشعراء في العصر المملوكي كانوا يمتلكون من الموهبة الشعريّة ما يمكّنهم من نظم القصائد في أغراض أخرى وفي أعلى مستوىً شعريّ، لكنّ الفقر حال دون ذلك. تلك الظروف القاسية التي جثمت على صدر المجتمع لم تترك للشاعر مجالاً للغوص في بحور شعريّة أخرى؛ بل لم يكن له بدّ إلّا الغور في غمرة المشكلات التي يعيشها هو وقبيله من الناس. فابن نباتة مثلاً وهو الشاعر الذي لُقّب بأمير الشعراء لدى البعض حينما كُلّف بإنشاد بيت له معنى لطيف ودقيق تذكّر عند سماع لفظة دقيق، الخبزَ المصنوع منه، فلم يلبث أن ينشد بيتاً لطيفاً يعكس حنينه وشهيّته إلى الخبز قائلاً (ابن نباتة، لاتا، ٢٥٢):

اسْتَنْشَدُوا فِي لُطْفِ شِعْرِي   وَالقَلْبُ بالجُوعِ فِي حَرِيقِ
وَقِيلَ هَلْ مِنْ دَقِيقِ مَعْنَىً   فَقُلْتُ لَهْفِي عَلَى الدَّقِيقِ

والملحوظ أن الشاعر ما فاته استخدام صناعة الجناس رغم ذلك المناخ المأساويّ الذي كان يكتنفه، فلفظة «الدقيق» في المصرع الأول ترادف «اللطيف»، وهي في المصرع الثاني تعني مسحوق القمح أو الطحين الذي يُصنع منه الخبز. ولا يخفى أنّ استخدام المحسّنات اللفظيّة والصناعات البلاغيّة هو ما دأب عليه الشعراء في هذا العصر وبشكلٍ مفرط يؤدِّي في كثير من الأحيان إلى التصنّع والتكلّف المقيت.

٤. تدنّي مكانة الشعراء: انحطّت منزلة الشعراء وتدنّت مكانتهم في ذلك العصر فهم فقدوا رعاية المماليك وتشجيعهم الذي من شأنه إنهاض الشعر وإنعاشه في جميع أغراضه؛ ذلك لأنّ المماليك كانوا أتراكاً لا يدركون من جماليات الشعر ولطائفه شيئاً يُذكر. زد على ذلك أنّ خوضهم في المعارك وانغماسهم في الحروب فوّت عليهم فرصة الإنصات إلى

الشعر والالتذاذ بمعانيه، فلم يعودوا يستطيعون تفقّد أحوال الشعراء وتلبية حوائجهم الماديّة، رغم الجهود المضنية التي بذلوها للدفاع عن حياض الإسلام واللغة العربية (باشا، ١٩٨٩، ٧٥)، وممّا زاد الطين بلّة أن الشعراء لم يجدوا إقبالاً شديداً من قبل الآخرين؛ لأن الناس لم يكونوا مرتاحي البال لسماع الشعر ولم يهتزّوا له، لما كانوا يواجهونه من شظف العيش ومصائب الدهر، فكسدت سوق الشعر واضطرّ الشعراء من اللجوء إلى مهنة يحصلون بها على لقمة العيش؛ ولهذا نجد لمعظم الشعراء الذين عاشوا في تلك الآونة لقباً يدلّ على الحِرف التي يزاولونها كالجزّار، والكحّال، والدهّان، والخيّاط، و... الخ (بكري، ١٩٨٠، ١٧٥).

وقد جعل كساد سوق الأدب وانكماشها ابن نباتة وهو من أكبر شعراء هذا العصر يشكو متعجّباً من قلّة زاد اليد وحظّه النكد من العيش مع ثروته الشعرية الهائلة، ثمّ يوجّه اللوم إلى الدهر ليرمز به إلى كافّة الأسباب التي سبّبت الأوضاع المأساويّة المُحرجة، بما فيها الحكومة الظالمة والمجتمع المنكوب (ابن نباتة، لاتا، ٣٠٣):

لَا عَارَ فِي أدَبِي إنْ لَم يَنَلْ رُتَبَاً ... وَإنَّمَا العَارُ فِي دَهْرِي وَفِي بَلَدِي
هَذَا كَلَامِي وَذا حَظِّي فَيَا عَجَبَاً ... مِنِّي لِثَرْوَةِ لَفْظٍ وَافْتِقَارِ يَدِ

فلم يكن من دأب المماليك إعطاء الشعراء صلة أو جائزة على غرار الملوك العباسيين الذين كانوا يجزلون لهم العطاء ويسبغون عليهم النعم. وقد يبلغ منتهى جود السلطان المملوكي للشعراء أن يتفوّه بكلمة شكرٍ أو إطراء يكافؤ بها صنيعة الشاعر، ولم يكن من ديدنهم إعطاء الشعراء شيئاً من الجوائز والتحَف؛ (ابن كثير، ١٩٨٧، ٥٦٠/١٣) فكانت نتيجة هذا البخل والإقتار أن قام الشعراء بسبّ المماليک وتعييرهم بكلّ عيب ومثلبة نفوراً منهم وكرهاً لهم، فخير شاهد نستشهد به على ذلک «سراج الدين الوراق» الذي أنشد الأبيات التالية ردّاً على بخل الممدوح في المكافأة تعبيراً عن بخل السلطان المملوكي بـ«البدال»[٢] (بكري، ١٩٨٠، ١٩١):

وَعَوَّضَني عَلَى شِعرِي بِشعرٍ ... وَجَازَى بِالمِحَالِ عَلَى المِحَالِ
وَلَستُ أَلُومُهُ فِيمَا أَتَاه ... لِعَاداتِهِ قَدِيمَاً بِالبِدالِ

لم يعد الشعر في ذلک العصر أمراً يقضي به الشاعر حاجاته الضروريّة، ناهيک عن سائر حوائجه وطموحاته. وممّا يؤسف له أنّ قول الشعر أصبح مثلبة من المثالب أو رذيلة تقلّل من شأن قائليه وتذهب بماء وجههم، فلا غرو أن نرى الشعراء ينهون أبناءهم وأقربائهم عن مزاولة الشعر كما فعل ابن الوردي؛ فابن الوردي هذا يفتخر بكونه عالماً نحريراً يحترمه الناس لمجرّد علمه، لكنّه في الوقت نفسه يتبرّم بالشعر ويحاول قطع صلته به صيانة على وجهته العلميّة وسُمعته الحسنة (ابن الوردي، ١٣٨٩ق، ٣٠٣):

بُنَيَّ إيَّاکَ وَنَظمَ الشِّعرِ فَإنَّهُ بالعُلمَاءِ يُزرِي
وَاللهِ لَولَا شُهرَتِي وَذِكرِي بِالعِلمِ كَانَ الشِّعرُ حَطَّ قَدرِي

وفي نموذج آخر أخذ الشاعر المملوكي «مجاهد الخيّاط» على شاعرٍ معاصرٍ له يسمّى بأبي الحسين الجزّار افتخاره بالشعر (ابن كثير، ١٩٨٧: ١٣/١٦٠):

أَبَا الحُسَينِ تَأدَّبْ فإنَّهُ لَيْسَ الفَخْرُ بِالشَّعرِ فَخْرُ

٥. احتقار العقل والفطنة: نستنبط من كثير من الأشعار التي نُظمت في الفترة المملوكية أنّ العقل انحطّ شأنه وضاعت مكانته وأصبح متاعاً لا يشترى إلا بثمن بخس ضئيل، وبالعكس أنّ الحماقة نفقت سوقها وعلا شأنها إلى درجة جعلت الشعراء يمدحونها ويتمنّون البلادة والرعونة ويحتقرون العقل والفطنة وما يمتّ إليهما بصلة بكلّ صراحة ووضوح؛ فهذا «ابن دقيق» مثلاً يتألّم من أنّ سحاب عقله لا تنقطع أمطاره وليله المظلم لا يزول لا ينقشع ظلامه؛ كما يُعرب عن سأمه وضجره واستياءه من كونه عاقلاً ويتمنّى بزفرة تعقبها شهقة لو كان جاهلاً أحمق لا يتبيّن يده اليمنى عن اليسرى (المصدر نفسه ، ١٣/١٠٣):

سَحَابُ فِكْرِي لَا يَزالُ هَامِياً وَلَيْلُ هَميّ لَا أرَاهُ رَاحِلا
قَدْ أتْعَبَتنِي هِمَّتِي وفِطنَتِي فَلَيتَنِي كُنتُ مَهِيناً جَاهِلا

وممّن لحق بهذا الركب وسار على هذا المنوال «ابوالحسين الجزّار» الذي يعتبر العقل والصبر ممّا جرّعه كؤوس العذاب وأذاقه مرّ العلقم. فلم يتردّد في أن يربط حظّه السيّئ وعيشه الضنك بكونه فاضلاً وعاقلاً؛ كما نرى في هذين البتين منه أنّ كلمة «الفاضل» في المصرع الأول من البيت الأخير استُخدمت في معناه المشهور وهو الفضل، وهي في المصرع الثاني استُعملت في معنى «الفَضلة» والمقصود بها من يكون عالة وطفيليّاً على الآخرين (المصدرنفسه، ٢٣٤/١٣):

قَدْ عَقَلْنَا وَالعَقْــلُ أيُّ وِثَــاقِ   وَصَبَرْنا وَالصَّبْــرُ مُرُّ المَــذَاقِ
كُلُّ مَنْ كَانَ فَاضِلاً كَانَ مِثلِي   فَاضِلاً عِنْدَ قِسْمَــةِ الأَرْزَاقِ[٤]

٦.شيوع الخلاعة والمُجون: دبّ الفساد في المجتمع المملوكي دبيب السوس في العظام، فانحرفت القيم عن مساراتها الصحيحة وشاعت السلوكيات الخاطئة، وتفشّت مظاهر الفساد في كلّ أرجاء البلاد. أصبح الكذب والمكر والنفاق والاحتيال وغير ذلک من الرذائل الخلقيّة سلوكاً عاديّاً اعتاده الناس، بمن فيهم الشعراء ممّا يدلّ على توغّل الفساد في قرارة المجتمع. من الطريف أنّ الشعراء كانوا يحاولون أحياناً تبرير سلوكهم الردئ وفعلهم اللا أخلاقي بشيء من التفلسف ممّا يدلّ على تحكّم جذور الفساد في ذلک المجتمع؛ خذ «محمد بن رضوان» المعروف بـ«الشريف الناسخ» (م٦٧١ق) مثلاً، فهو عندما أراد أن يبرّء نفاقه وتلوّن مزاجه أجال عينيه في مظاهر الكون وعناصر الطبيعة ليرى فيها ما يتعرّض للتغيير والتلوّن، فوجد السماء أنّها ليست على حالة واحدة، تكون صاحية تارة وغائمة تارة أخرى؛ فما لبث أن شبّه نفسه المتلوّنة بالسماء فراراً من اللوم، ودفاعاً عن نفسه التي تتلوّن آناً فآناً. لا يخفى أنّ الشاعر يريد بهذا التفلسف السخيف أن يبرّر نفسه من العقاب الذي يستحقّه كلّ مزاج متلوّن، وهذا نموذج بارز من أخذ الشعراء في العصر المملوكي بالفلسفة المكياولية التي أشرنا إليها سابقاً (الركابي، ١٩٨١، ٣٧٠):

يَا مَــنْ يَعِيــبُ تَــلوُّنِــي   مَا فِي التَلَوُّنِ مَا يُعَــابُ
إنَّ السَّمَــاءَ إذَا تَــلَــوَّ   نَ وَجْهُهَا رُجّيَ السَّحَابُ

٧. حبّ المصريين للفكاهة: هذا الحبّ يُعدّ من أكبر مكوّنات الفكاهة والتحامق لدى المصريين منذ أقدم العصور حتّى زماننا هذا. ولذلک يزخر الأدب المصري بأشكاله المتنوّعة بالهزل

والفكاهة. وقد أشار «ابن سعيد» من شعراء العصر المملوكي إلى ما اشتهر به المصريون من دماثة الخلق وخفّة الروح. ففي رأي ابن سعيد إقامة المصريين بجوار النيل الأزرق ووجود موسى بعصاه السحريّة ويده البيضاء في مصر ممّا أكسب المصريين الحلاوة والسحر في النظم والنثر كليهما (خفاجي، ١٩٨٥، ٢١٤):

أسُكَّانَ مِصرَ جَاوَرَ النِّيلُ أرضَكُم فَأكسَبَكُم تلكَ الحَلاوَةَ في الشِّعرِ
وَكَانَ بِتِلكَ الأرضِ سِحرٌ وَمَا بَقِى سِوَى أثَرٍ يَبدُو عَلَى النَّظمِ وَالنَّثرِ

لقد تجلّت روح الفكاهة المصريّة في الأشعار التي نظمها شعراء أنجبتهم أرض مصر في تلك الحقبة؛ فأبوالحسين الجزّار حينما يريد أن يعطينا صورة واضحة مؤثّرة من فقره يستمدّ من ظرفه ولطفه، فينشد أبياتاً يصوّر فيها فقره وحرمانه بأسلوب تصبو إليه النفس ويطيب له القلب. ربما ليس من السهل الخلط بين الفقر والفكاهة لما بينهما من تنافر وتباين؛ لكنّ الشاعر الذي أوتي حظّاً كبيراً من القريحة الشعريّة والطبع الرقيق يستطيع أن يوفّق بينهما صلحاً، كما فعل الشاعر أبوالحسين الجزّار المصري، فهو لا يملك فرشاً يفترشه ولا يجد عنده وسادة يضع عليها رأسه عند النوم، فيجعل ظلّه فرشاً وينفخ شدقه وسادة له (ابن حجر، ١٣٨٩ق، ٢/٢١٧):

وَلَمْ أَلْقَ فِي بَيْتِي دِثَاراً أعُدُّ لِبَرْدٍ وَلا شَيءٌ يَردُّ هَجِيرا
فَأنْفَخُ شِدقي إذَا أرَدتُ وِسَادَةً وأفْرَشُ ظِلّي إنْ أرَدتُ حَصِيرا

٥-٢. البواعث الذاتيّة:

فيما مضى أتينا بأهمّ الأسباب الاجتماعيّة التي شاركت في تنمية وتطوير التحامق في الشعر المملوكي، فنرى الآن أنّه لمن الضروري أن نتطرّق إلى البواعث الذاتيّة التي حفّزت المتحامقين على شعر التحامق؛ إذ أنّ هذه البواعث لها أهميّتها ودورها في إعطاء شعر التحامق تشكيلته الخاصّة وتحديد ملامحها. ومن أهمّ البواعث الذاتيّة التي تركت بصماتها وسماتها على التحامق في العصر المملوكي هي:

١. جمع المال والثروة: سبق أن قلنا إنّ المعايير الأخلاقيّة انحرفت في ذلك العصر وخرجت القيم عن مسارها الصحيح، فاختلفت الموازين وانقلبت الرؤى فأصبح المجتمع لا يحترم العقل ولا

يقيم له وزناً. فأصحاب العلم والأدب فقدوا جاههم ومكانتهم فولّت الدنيا عنهم وضاقت بهم الأرض بما رحُبت. بالمقابل صار الجهلاء أصحاب الخلاعة والمُجون موضع الاهتمام ومحطّ الأنظار وأقبلت إليهم الدنيا بزخارفها ومباهجها، واجتمعت لديهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضّة. لقد أثّرت هذه الأوضاع المُترديّة على الشعر أسوأ تأثير حتّى أخذ الشعر ينحو منحىً جديداً توصّل الشعراء في ذلك الوسط الردئ إلى القناعة بأنّ الحمق والبلاهة هي التي تحقّق لهم آمالهم وطموحاتهم وتوفّر لهم الحظّ السعيد والعيش الرغيد فراحوا يتنافسون في حلبة التحامق منشدين الأشعار التي تضحك السامعين من أصحاب الثراء وتجعل أكفّهم تدرّ عليهم الأموال. أصبح ذمّ العقل ومدح الجهالة والحمق أمراً عاديّاً يصرّح به الشعراء في أشعارهم. فالشاعر المملوكي «أبوالعجل» أنشد أبياتاً في ذمّ العقل فيقول فيها إنّه أيّام تشبّثه بالعقل كان يعيش فقيراً حافياً وعارياً، ولكنّه حينما تمسّك بالحمق فسرعان انفتحت له أبواب الثروة فصار ثريّاً متموّلاً له خيول وغلمان يخدمونه (ابن تغري بردي، ١٩٨٩، ٣/٧٠٢):

وَصَيَّرَ لِي حُمْقِي بِغَالاً وَغِلمَةً　　　وَكُنْتُ زَمَانَ العَقْلِ مُمْتَطِياً رِجْلِي

٢. تجنّب العقوبات: اعتاد الشاعر المملوكي على نقد الحكّام ولومهم بسبب ما يرى فيهم من الفساد والظلم وسوء إدارة الملك. من الملاحظ أنّ الشعراء في العصر المملوكي يوظفّون في أشعارهم الأدب الساخر والأسلوب الفكاهي عند تعرّضهم للحكّام صيانةً لحياتهم من العقوبة، فأخذ الشعراء المتحامقون يستخدمون هذا الأسلوب ملاذاً آمناً وحصناً حصيناً لهم، فهم كانوا ينتقدون رجال الحكم دون الخوف من المساس بهم. من أجل ذلك كثر وراج المتحامقون في الأوساط التي سيطر عليها المستبدّون الذين لا يطيقون الانتقاد، إلاّ إذا شابه شيء من الفكاهة، فكأنّ الفكاهة هي الطعام الدسم الذي دُسّ فيه السمّ وقُدّم للحاكم الجائر كي يتناول السمّ بشهوة الطعام. لقد كثر في العصر المملوكي المتحامقون الذين أخذوا على عاتقهم البوح بما يجري في المجتمع من ظلم وفساد وفوضى، حتّى تزخر الدواوين الشعرية بهذا النوع من الشعر بكميّة لا تعدّ ولا تُحصى. فهذا «ابن عيين» مثلاً يشكو عائباً جماعة من ذوي المناصب الرفيعة، فهو يصف السلطان بالعرج والكاتب بالعمى والوزير بالانحداب والقائد بدمامة الخلق،

و واضحٌ أنّ في المجتمع الذي تسوده هذه الطغمة المشوّهة، لا بدّ من الحصول على لقمة العيش من القيام بالزنا والآثام (الصفدي، ١٩٦١، ٢/٩٨٢):

قَدْ أصبَحَ الرِّزْقُ مَا لَه سَبَبٌ   في النَّاسِ الاّ البِغَاءُ وَالكِذْبُ
سُــلطَانُنَا أعْرَجُ وَكاتِبُــهُ   ذو عَمَشٍ وَالوَزيرُ مُنْحدِبُ
وَ صَاحِبُ الأمْرِ خُلُقُه شَرِسٌ   وَعَارِضُ الجَيَشِ دَاؤه عُجُبُ

نرى في الأبيات السابقة أنّ الشاعر حاول أن يرسم صورة كاريكاتوريّة بشعة من الحكّام الذين بيدهم زمام الملك، فوصف كلّ واحد منهم بآفة وعاهة كي يستكنه القارئ المأساة التي حلّت بالمجتمع المملوكي، إلاّ أنّ هذا الأسف سرعان ما تواكبه ابتسامة عندما ترتسم في ذهن القارئ صورة كليّة وعامّة من هؤلاء الحكّام العباقرة الأفذاذ! وهم في حال رتق وفتق للأمور.

ثمّة نموذج آخر لابن عيين يصف فيه جشع الحاكم وشهوته الجامحة للأكل، كما يعيبه أيضاً بالبخل، فالحاكم له يدٌ قصيرةٌ عن العطاء ولكنّها طويلة حين الجلوس عند المائــدة. ثمّ ينتقــل الشاعر إلى صورة أخرى يلتقطها من هذا الحاكم العبقري وهي عدم إعطاءه حقوق الفقراء، كأنّ الفقراء في نظر الحاكم إصبع زائدة بين الأصابع أو واوٌ زائدة ألحقوها بكلمة «عمرو» لا عبرة بهما (الصفدي، ١٩٦١، ٣/٩٦١):

مِنْ كُلِّ مَا قَصُرَت يَدَاهُ عَنِ النَّدَى   يَوْمَ الجَدَا وَتَطُولُ عِنْدَ المَائدَة
فَكَأنَّنَا وَاوٌ بِعَــمرٍو أُلحِقَـــتْ   أو أصْبُعٍ بَيْنَ الأصَابعِ زَائــدَة

والنموذج الثالث أبيات أنشدها شاعر مملوكي حول أحد الحكّام سُميّ بــسيف الــدين. استعمل الشاعر هذا اللقب لكي يخلق في شعره صورة مضحكة تعرض بخله وظلمه للفقــراء. فيقول الشاعر أنّ الحاكم ملقّب بالسيف لكنّه لا يقطع الأعداء، بل يقطع أرزاق الناس (ضيف، ١٩٨٥، ٢٧٨):

إنَّ سُلــطانَنا الَّــذي نَرتَجيه   وَاسِعُ المَالِ ضَيِّقُ الإنْفَاقِ
هُوَ سَيْفٌ كَمَا يُقَالُ وَلكَــنْ   قَــاطِعٌ لِلرُّسُومِ وَالأرْزَاقِ

٣. جذب انتباه الناس وكسب الشهرة: كان الشاعر المملوكي يستهدف اجتــذاب النـــاس والوصول إلى الشهرة، ولمّا وجدوا في التحامق تجسيداً لأهدافهم وتحقيقاً لمآربهم ما لبثــوا أن جعلوه ميداناً يتنافسون فيه بشكلٍ غير مسبوق، فسرعان ما لقي هذا الشعر إقبالاً شديداً مـــن قبل الناس لا لشيء إلا لأنّه كان يصوّر آلامهم وآمالهم تصويراً صادقاً بالرغم من سائر الأشعار التي لا تهتمّ بمشكلات الناس ولا شأن لها بما يعانوه من الشدائد والمصائب والمِحن. كان الشاعر المملوكي لا يتردّد في التوجّه إلى شعر التحامق مهما كانت منزلته سامية ومكانته رفيعة، لأنّ التحامق كما ذكرنا آنفاً مجال خصب للتعاطف مع الناس والتجاوب مع طموحاتهم وبالتـــالي العثور على اهتمامهم وانتباههم؛ فابن الوردي مثلاً كان شاعراً ذاعت صيته ودوّت شهرته في الآفاق لاهتمامه بالأشعار التي تزخر بالحِكم والنصائح، لكنّه مع ذلک جنح إلـــى التحـــامق للتماشي مع المجتمع ومواكبة رغباتهم، فإنّه جعل ينظم أبياتاً في الغلمان والمُرد؛ لأنّ هذا اللون من الشعر الذي كان يشيع عند شعراء التحامق لقي ترحيباً حارّاً من قبل المجتمع، وكان مـــن شأنه أن يرفع ذكر الشاعر إلى أعلى مربتة من السموّ والرقي. يقول ابن الـــوردي في البيـــتين التاليين إنّه أكثر من نظم الأشعار التي تتعلّق بالمُرد والغلمان لكنّه ينزّه نفسه من الإتيـــان بهـــذا السلوک الماجن والقبيح ويعتبر عمله محاولة شعريّة للفت انتباه القـــارئين فقـــط (الـــوردي، ١٣٨١، ٢/٣٤١):

أستَغْفِرَاللهَ مِنْ شِعْرٍ تَقَدَّمَ لِي	في المُرْدِ قَصْدِي بِهِ تَرْوِيجُ أشْـعَارِي
لَكِنَّ ذلکَ قـــوْلٌ لَيْسَ يَتْبَعُهُ	خَنَاً وَحَاشَایَ مِن أفْعَالِ الأشْــرَارِ

٦. مضامين شعر التحامق في العصر المملوكي

لو نظرنا إلى شعر التحامق بإمعان باحثاً عن معانيه الرئيسيّة ومضامينه البنويّة لاهتدينا إلى معانٍ هي الأكثر شيوعاً وأوسع نطاقاً من غيرها. فها هي أهمّ المعاني التي توصّلنا إليها بعد تـــدقيق النظر وتمحيص الرؤية في شعر التحامق.

١. تجسيد الفقر والمعاناة: المطالعة في شعر التحامق توصلنا إلى القناعة بأنّ الفقر وما يدور في فلكه هو المضمون الرئيسي الذي يدور في خلد الشعراء في العصر المملوكي. ذلک لأنّ المجتمع المملوكي كما سبقت الإشارة إليه كان يعاني الفقر، والفقر كان الهاجس الرئيسي لدى كـــلّ من يعيش في ذلک المجتمع، ولّما أخذ الشاعر المملوكي على عاتقه مهمة تصوير البؤس والشقاء

أصبح شعره مرآة صافية تبلور الفقر وما يخلّفه من فساد وضياع وانهيار، وصار شعره كعدسة الكاميرا تصوّر المجتمع الذي نكبه الفقر وحلّ به المزيد من الكوارث والبلايا وقاده نحو شفير الهاوية.

فهذا أبوالحسين الجزّار على سبيل المثال حيث جعل الفقر نغمة عذبة تتناغم معها قيثارة شعره، فصوّره بأسلوب الفكاهة والتحامق شأن باقي الشعراء في ذلك العصر. فهو أخذ يعارض معلّقة إمرؤالقيس الشهيرة[٣] في محاولة لرسم صورة الفقر المشينة وزرع ابتسامة أو ضحكة على أفواه المستمعين. يستوقف الشاعر صاحبيه ولكن لا للوقوف عند الرسوم البالية شأن امرئ القيس بل للبكاء على قميصه وسرواله اللذين أبلاهما الدهر وتركهما في حالة مرزية. كما أنّ شاعرنا لا يبكي لرحيل حبيبته «أسماء» بل يبكي على أحذيته البالية التي فقدها. إنّ حاجة الشاعر الماسّة إلى حظيرة دافئة يسكنها في أحضان البهائم والمواشي، شغله عن التغزّل بالنساء الحسناوات في «توضح» و«المقراة»، ثمّ المجد الأصيل الذي يتمنّاه الشاعر ويجوب من أجله الآفاق ليس سوى جبّةٍ ضخمة تقيه البرد القارس، فهو لا يطمح كامرئ القيس إلى العرش أو الثأر من أعداءه؛ فإليك بعض أبيات القصيدة (المصدر نفسه ، ٢/٥٠٠):

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى قَمِيصٍ وَسَرْوالِ ... وَدُرّاعةٍ لِي قَد عَفَا رَسْمُها البَالي
وَمَا أَنَا مَنْ يَبْكِي لأَسْمَاءَ إن نَأَتْ ... وَلكنَّنِي أبكِى عَلَى فَقْدِ أَسْمَالي
وَلِي مِن هَوى سَكَنِي القَيَاسرَ عَن هَوَى ... بِتُوضِحَ فَالمِقْراةَ أعْظَمُ أشْغَالي
ولو أنّني أسْعَى لِتَفْضِيل جُبّةٍ ... كَفَاني و لم أطْلُب قَلِيلٌ مِنَ المَالِ
وَلكنَّنِي أسْعَى لِمَجْدِ جُوخَةٍ ... وقَدْ يُدرِكُ المجْدَ المُؤثّلَ أمْثَالي

من الملاحظ في الأبيات السابقة أنّ الشاعر يسخر من القيم العربيّة المتأصّلة في نفوس العرب كالحبّ والأنفة والطموح والإباء، ويجعل هذه القيم مجالاً خصبة يستمدّ منها مادّته الهزليّة الدسمة.

٢. تجسيد العيوب الظاهريّة والجسديّة: لم يكن وصف العيوب والعاهات الجسديّة أمراً جديداً في ذلك العصر؛ إذ أنّ الشعراء طالما تطرّقوا إلى هذه العيوب وجعلوها أداة طيّعة لخلق أجواء فكاهيّة في أشعارهم، إلا أنّ الشعر المملوكي غالباً ما تركّز جهوده على العيوب الجسديّة التي

تتعلّق به فيجعلها مصدر إلهام يستفزّ خياله وذوقه الشعري فتتولّد لديه أشعار تقدر أن تمنح المستمعين متعة وتسلية، ومن ثمّ تستدرّ أكفّهم بالذهب والفضّة. كان سراج‌الدين الورّاق من الشعراء الذين طرقوا هذا الباب ومهّدوا طريقه، فإنه كان لديه خصائص ظاهريّة قلّما توجد لدى إنسان عربيّ؛ حيث كانت بشرته بيضاء وشعره أشقر وعيناه زرقاوتين وكان يمتطي حماراً بدل الفرس، فهذه الأوصاف العجيبة والغريبة جعلته لا يشبه العرب ولا العجم؛ لأنّ العرب لا يوجد فيهم من تنطبق عليه هذه الأوصاف، والفُرس لا يمتطون الحمار بل يركبون الفَرس. فيرى الشاعر في نهاية المطاف أن يشبّه شكله بالروم، ومن نافلة القول أنّ أقبح ضورة لدى العرب هي التي وصف بها الشاعر نفسه، وأما الأبيات فها هي (ابن حجر، ١٩٤٦، ١١١):

وَمَنْ رَآنِي وَالحِمَارُ مَرْكَبِي وَزُرقَتِي لِلرُّومِ عِرْقٌ قَد ضَرَب
قَالَ وَقَدْ أبْصَرَ وَجهِي مُقْبِلاً لَا فَارِسَ الخَيلِ وَلا وَجْهَ العَرَب

والنموذج الآخر الذي نقدّمه في هذا المجال هو ما يتعلّق بالشاعر المملوكي أبي الحسين الجزّار، فهو طُري لنفسه صورة مضحكة أشبه ما يكون بصورة «السنجاب»، كما يقول نفسه؛ إذ ليس لديه من القمصان الدافئة ما تقيه البرد الجامح وفي الشتاء القاسي وأثناء نزول الثلج. فالزرقة التي اعترت جسده من شدة البرد والبياض الذي خالطها صيّرا لونه أبلق يُرى عادة ما في السنجاب موسم الشتاء. والجدير ذكره أنّ السنجاب حيوانٌ ليس مرغوباً فيه في الثقافة العربيّة وذلک لقبح منظره ونتن ريحه وشؤمه، فاختار الشاعر هذا الحيوان ليشبّه به نفسه إمعاناً في المناخ الفكاهي (المصدر نفسه ، ١١٥):

يَا سيِّدي عَطْفاً فإنِّي مَيِّتٌ وَفِي دِمَشْقَ اليَوْمَ بَرْدٌ قَدْ عَتَا
زُرْقَةُ جِسْمِي وَبَيَاضُ ثَلجِها سَنْجَابٌ أبْلَقٌ فِي أيَّامِ الشِّتَا

٣. تصوير العيوب النفسيّة: ما غاب عن بال الشاعر المملوكي تصوير العيوب النفسيّة في شعر التحامق أيضاً، فراح المتحامقون يوظّفون عيوبهم النفسيّة بشكل مضخّم ومبالغ فيه للإضحاک. كان العُقم والعنن والبخل والبلادة من العيوب الأكثر رواجاً في أشعارهم. لقد تفطّن الشاعر المتحامق إلى أنّه إذا عرض في شعره صورة مشوّهة من نفسه متّصفة بالأخلاق

الرديئة والعيوب المخزية يؤثّر هذا المنهج على المستمعين تأثيراً ربّما يحملهم على العطاء لهم والإغداق عليهم. فهبّ الشاعر المملوكي يرسم صورة مشوّشة معيبة تتّسم بكلّ الأوصاف الذميمة.

فصفي الدين الحلّي وهو من أعظم شعراء العصر ألصق بنفسه صفة البخل التي كانت أسوأ صفة يشمئزّ منها الإنسان العربي، لكنّ الأمور خرجت عن مسارها الصحيح والمعايير الخلقية انقلبت رأساً على عقب، فلا عجب أن نرى الشعراء يتسابقون في وصف أنفسهم بالبخل والجشع على قدمٍ وساق. فالحلّي مثلاً يصف بخله في قصيدته بأسلوب تحامقي لا نكاد نجد له مثيلاً في العصور الأخرى، فبخله يحمله على مشاركة رُعاة الجمل في طعامهم ليدّخر أمواله قرشاً قرشاً. يأكل هو دائماً مما تبقّى له من طعام الأمس ويتلو آية الكرسي على قدره حفاظاً على ما فيه من الطعام. لو وُجد في بيته فارّة مسكينة تبحث عن طعامٍ تأكله يهجم عليه بالسيف فوراً ويقطعها إرباً إرباً قبل أن تنقص من بيته شيئاً. يصل البخل بالشاعر إلى حدٍّ يقول إنّ الضيف لا يُسمح له أن يتمتّع من طعامه بحواسّه الخمس كلّها، فإذا جاز للضيف أن يرى ويسمع ويشمّ خبز الشاعر فلا يجوز له لمسه وتذوّقه بتاتاً. ثمّ إنّه يقفل ويغلق جميع أبواب عند الأكل خشية حلول الضيف به، فإذا جاءه ضيف حالفه الحظّ على حين غفلة منه يُبدي له الشاعر وجهاً عبوساً وجبيناً مقطّباً كي يُقفل الضيف راجعاً ويذهب من حيث أتى. فإذا أصرّ الضيف البائس على البقاء يدعوه الشاعر إلى الحمية والصوم لعلّه ينصرف من فكرة الطعام، فإذا ذهب جهده هدراً وأراد الضيف أن يأكل شيئاً من طعامه بإلحاحٍ وإصرارٍ يحضّر له الدبس مع الخبز حتّى يأخذ منه لقمة واحدة. فإذا الضيف سوّلت له نفسه أن يأخذ أكثر من لقمة يوجّه إليه رفسة شديدة تقذفه خارج البيت قذفاً، حتّى لا يخطر بباله أن يأتيه مرّة أخرى طلباً للقرى والضيافة! (الحلي، ١٩٨٠، ٣٦١):

مُزاحمُ الجُمَّالِ في قُوتِه ... وَيَخْزَنُ الفَلْسَ عَلَى الفَلْسِ
يَأكُلُ وَالغِلْمَانَ في يَوْمِه ... فُضْلَةَ مَا قَدْ كَانَ بالأمْسِ
إذا رَأى في قدرِه لَحْمَةً ... تَلَا عَلَيْهَا آيَةَ الكُرْسي
وَإنْ رَأى فِي بَيتِه فَأرَةً ... بَادَرَهَا بِالسَّيفِ وَالتُّرْسِ
يُجلُّ أن تُدْرِكَ رَغَفَاته ... حَواسُ مَن يَأتيه بالخَمْسِ
بِالسَّمع وَالإبصارِ وَالشمِّ قَد ... تُدرَكُ دونَ الذَّوقِ وَاللَّمسِ

يُقفلُ عنـــدَ الأكْلِ أبْوابَـــهُ   خَوْفاً عَلَـــى الزَّادِ من الكَبْـــس[7]
فَإنْ أتَى ضَيْفٌ عَلَى غِـــرَّةٍ   قَابَـــلهُ بالتَّـــعْـــسِ[8] والنَّكْـــسِ[9]
يَلقَى بالتَّرغيب في الاحْتِماء   وَبَـــعْـــدُ بالخُبْـــزِ والـــدِّبْـــسِ
فَـــإنْ تَعَدَّ أكْـــلُه لُقْمَـــةً   رَأيـــْتَ فِـــي أضْلاعِـــه رَفْسِي

وفي نموذج آخر من هذا النمط نرى سراج الدين الورّاق أنّه لا يدّخر جهداً لجعل عيوبـــه مادةً للهزل والتحامق تعود إليه بربح كثير، فهو يصف نفسه بالعنن والعقم وعدم القدرة على إتيان النساء، كي يوفّر أجواء فكاهيّة تُضحك المستمعين ويجني ثمارها. فهو رغم ميلـــه إلـــى النساء يعجز عن ممارسة الجنس أيّام كهولته، وحينما يدنو منهنّ لا يستطيع فعل شيء، فلا فرق بين أن يكون عند نساءه أو يعيش ما بين عمّاته وخالاته (ضيف، ١٩٨٥، ١٤٠):

يَا عَجَباً بَعْـــدَ عَصْـــرِ الصِّبَـــا   مُخَالِفٌ فِـــي كُلِّ حَالَاتِي
أصْبُو وقَد أصْبَحتُ مِن نِسْوَتِي   مَا بَيْنَ عَمَّاتِـــي وَخَـــالَاتِي

فَقَدَ الشاعر المملوكي الشعور بالترفّع والإباء والانتماء إلى نسب شريف، فلا نجده يفتخر بالكرم والأصل والسجايا وتخلو الأشعار غالباً ممّا يُوحي بالكرامة والسؤدد. نحن نلاحـــظ في الشعر المملوكي التحامق بكلّ أنواعه وكافّة أشكاله، ولكن من أكثر أنواع التحامق شيوعاً هو أن يدّعي المتحامق أنّ حمقه ورعونته بلغت درجة لا يميّز بها ليله عن نهاره ولا يعرف أين تقع داره، فهو أصبح أشدّ حمقاً من الجمل والحمار الذي يُضرب به المثل في الحماقة (ابن حجـــر، ١٩٤٦، ١١٩):

نَـــهَارِي مِـــنَ البَلادَةِ لَيْلٌ   في التَّسَاوِي واللَّيلُ مِثْلُ النَّهَارِ
دَارَ رأسِي عَن بَابِ دَارِي فَبِاللهِ   أخْبِرونِي يَا سَادَتِي أيْنَ دَارِي؟
أيْنَ مُخُّ الجِمالِ مِن طَبْعِ مُخِّي   في التَّسَاوِي وأيْنَ مُخُّ الحِمَارِ؟

ذهب التحامق بالشاعر المملوكي كلّ مذهب حتّى إنّه يتفوّه في شعره بما يدلّ على أنّه لا رادع أمامه في هذا المجال ولا وازع، ولا ينتهي به التحامق عند حدّ. فهذا البوصيري مثلاً وهو من أكبر الشعراء الذين أشادوا برسول الأعظم (ص) ينظم أبياتاً تهتك كل القيم الأخلاقيـــة.

كان للبوصيري أتان فحينما جاءه محصّلو الضرائب وأرادوا ضبط الأتان إزاء الضريبة التي كان على الشاعر دفعُها توجّهت الأتان إليهم وقال لهم بِلُغتهم، أنتم يا أهل الفضل والكرامة أنّ لي سيّداً أحمق وأرعن جعلني حاملاً فلا يجوز لكم أخذي وضبطي مادمتُ أحمل في بطني ما يتعلّق بصاحبي ومولاي الذي أنجبني به! (ابن تغري بردي، ١٩٨٩، ٤/٣١٣):

يَا أَيُّهَا السيِّدُ الَّذي شَهِدَت　　أَلْفَاظُـهُ لي بِأَنَّـهُ فَـاضِلُ
مَـا كَانَ مِثْلي يُعَيِّرُهُ أَحَدُ　　قَطُّ وَلَكِنْ سَيِّـدي جَـاهِلُ
وَبَعْدَ هَذَا فَمَا يَـحِلُّ لَكُمْ　　مِلْكِي فَإِنِّي مِن سَيِّدِي حَامِلُ

نجد أمثال هذه الأبيات في العصر المملوكي بكثرة كاثرة، فلو افترضنا أنّ البوصيري لم يفعل قطّ ما قاله وإنما جاء بهذه الأبيات تفنّناً وتماشياً مع شعراء عصره فلا يمنعنا هذا الافتراض أن نقول بأنّ الأخلاق في مجتمع البوصيري بلغ من الرداءة والتدهور مبلغاً يصرّح فيه الشعراء بسهولة بما يندى له الجبين ويخلع له العذار.

النتائج

النتائج التي توصّلنا إليها عبر هذا البحث:

شهد العصر المملوكي حروباً ضارية ومعارك دامية أدّت إلى تحكّم الفقر والحرمان بجذور المجتمع. زد على ذلک البلايا والويلات الطبيعيّة التي زادت الطين بلّة وجعلت المجتمع المملوكي يعيش في حالة يُرثى لها. انحرف المجتمع عن مساراته الصحيحة وفقدت فيه القيم المثلى شأنها ومكانتها وأصبحت الرذائل والقبائح ذات قيمة وشأن. هذا التغيّر الذي طرأ على العصر المملوكي دفع الشعراء إلى الانفتاح على التحامق والمضيّ قدماً على مساره طمعاً في المادّة والصيت. والأمر الذي جعل التحامق متميّزاً في هذا العصر أنّ المتحامقين كانوا يستغلّون عيوبهم الجسديّة والنفسيّة كمادّة دسمة ينظمون بها أشعار التحامق. من المؤكّد أنّ المطالعة في الشعر المملوكي من شأنها أن تعطينا فكرة صحيحة ورؤية واضحة للعصر؛ ذلک لأنّ الشعر المملوكي بما فيه التحامق يعكس كمرآة صافية الأوضاع السياسية والاجتماعيّة والثقافيّة. أضف إلى ذلک أنّ هذا الشعر نُظم في العصر المملوكي باللغة الفصحى ممّا زاده قيمة وأهميّة.

شاع التحامق في الشعر المملوكي واحتلّ منه حيّزاً كبيراً حتّى أصبح سمة بارزة من سمات ذلك العصر. والنتيجة الهامّة التي نخرج بها من هذا المقال هي أنّ التحامق يتنامى ويتعاظم في الأوساط التي يتوغّل فيها الفساد وتدبّ فيها الرذائل دبيب السوس في العظام. والمجتمع المملوكي هو خير شاهد على هذا الأمر حيث بلغت المساوئ والفضائح فيه غايتها ومنتهاها حتّى خُمد العقل وفسد الذوق وماتت القيم والأمجاد. لا شكّ أن في مجتمع كهذا لا ينمو ولا يتّسع سوى الهزل والتحامق الذي يُعدّ مؤشّراً صادقاً للمجتمعات المتردّية والمنحطّة.

ثمّ لا يفوتنا أن نقول إنّ الشعراء في العصر المملوكي وظّفوا التحامق للتعبير عن ظلم الحكّام وفظاعة العيش وقسوة الظروف. والهدف الذي حداهم إلى التحامق هو الفرار من العقوبة واللجوء إلى ملاذ يحميهم.

الهوامش

١. مدرسة تابعة للفيلسوف اليوناني القديم مكياول وهي تقوم على أساس مبدأ «الغاية تبرّر الوسيلة».

٢. المقصود من «بني الأصفر» هم الصليبيّون الروميّون الذي كانوا ذا وجوه صفراء.

٣. والبدال طبقاً لما شرحه مصادر اللغة عبارة عن فعلة شنيعة يقوم بها رجلان مستهتران، حيث يستبدل كلّ منهما زوجته بزوجة رجل آخر يستمتع بها حيناً من الدهر. (ابن منظور، ٣/ ١٠٩٨)

٤. بين كلمتي «الفاضل» في كلي المصرعين نرى جناسا تامّاً.

٥. «العمش» معناه الأعمى.

٦. وهي المعلقّة التي جاء في مطلعها: قِفا نَبکِ من ذکری حَبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللوى بين الدَّخُول فحومَل.

٧. ضيف من دون الدعوة.

٨. العبوس والتجهّم.

٩. التحقير والامتهان

المصادر والمراجع

الف). كتب

- إبراهيم حسن، حسن، تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة، مكتبة نهضة المصريّة، لا.ط، ١٩٤٨م.
- ابن إياس،ابوالبركات محمدبن احمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: مصطفى السّقا، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٨٢م.
- ابن‌تغري بردي، يوسف، النجوم الزاهرة في ملوک مصر والقاهرة، دمشق، دار إحياء التراث العربي، لا. ط، ١٩٨٩م.
- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، بيروت، دار الجيل، لا. ط، ١٩٤٦م.
- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، بيروت، دارالكتب العلميّة، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- ابن‌منظور، ابوالفضل جمال‌الدّين، لسان العرب، بيروت، دارصادر، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.
- ابن نباتة، ديوان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا. ط، لا.ت.
- ابن الوردي، عمر، تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: احمد رفعت بدراوي، بيروت، لا. ط، ١٣٨٩ق.
- الأصفهاني، ابوالفرج، الأغاني، بيروت، دارالفكر، لا. ط، ١٩٧١م.
- اميرى، جهانگير، تاريخ الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، طهران، سمت، ١٣٨٧ش.
- بكري، شيخ امين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، بيروت، دارالآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.
- ركابي، جودت، الأدب العربي (من الانحدار إلى الازدهار)، دمشق، دارالفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
- سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، اسكندرية(مصر)، لا. ط، ١٩٥١م.
- سليم، محمود زرق، عصر سلاطين المماليک، الجمهورية العربيّة المتّحدة، مكتبة الآداب، ١٣٨١ق.
- صفدي، خليل بن ايبک، الوافي بالوفيات، تحقيق هملوت ريتر، بيروت، لا. ط، ١٩٦١م.
- صفى‌الدين الحلي، ديوان، بيروت، دارالجيل، ط، م، ١٩٨٠ لا.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي(عصرالدول والامارات:مصروالشام)، القاهرة، دارالمعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.
- ـــ، ـــــ، الفكاهة في مصر، القاهرة، دارالهلال، لا. ط، ١٩٩١م.

ب). المواقع الإنترنتية:

- موقع اتّحاد الكتّاب العرب: www.awu-dam.org

بررسی و تحلیل «تحامق» در شعر مملوکی

جهانگیر امیری[۱]، فاروق نعمتی[۲]

چکیده

واژه‌ی "تحامق" از ماده‌ی «حمق»، به معنای تظاهر کردن به حمق و بلاهت است. شعر تحامق، گونه‌ای از شعر طنز و فکاهه است که شاعر در آن به نادانی و حماقت تظاهر می‌کند تا خنده‌ای بر لبان ممدوحان بنشاند و از جود و بخشش آنان بهره‌مند شود. این شعر در همه‌ی ادوار، کم و بیش وجود داشته است؛ اما در عصر مملوکی به علت فقر، فساد و انحطاط اخلاقی، رواجی بی‌سابقه یافته و به شکل یکی از فنون و اغراض رایج شعری درآمده است.

انگیزه‌ی سرودن شعر تحامق در عصر مملوکی، بیش از هر چیز به کسب ثروت و شهرت برمی‌گردد. توصیف فقر، عیوب ظاهری و باطنی و بی‌اعتنایی به هنجارها و ارزش‌های اصیلی همچون: میهمان نوازی، بخشش و کرامت، مردانگی و مروّت، از مهم‌ترین درونمایه‌های شعر تحامق به شمار می‌روند.

در این پژوهش، ضمن بیان پیشینه‌ی شعر تحامق، عوامل و انگیزه‌های گسترش این شعر در عصر مملوکی و نیز مضامین و درونمایه‌های آن بررسی شده است.

کلیدواژه‌ها: تحامق، شعر مملوکی، عوامل اجتماعی، انگیزه‌های فردی، مضامین شعر تحامق.

---

۱. استادیار دانشگاه رازی

۲. دانشجو دکترا دانشگاه رازی